

العنوان:	طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي : دراسة سردية
المؤلف الرئيسي:	كساب، إنصاف إبراهيم
مؤلفين آخرين:	الصالح، عزمي محمد شفيقة(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	جرش
الصفحات:	1 - 107
رقم MD:	790241
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة جرش
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الأردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الاندلسي، السرد الأدبي، النقد الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/790241

لإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

كساب، إنصاف إبراهيم، و الصالحي، عزمي محمد شفيق. (2014). طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي: دراسة سردية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة جرش، جرش. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/790241>

إسلوب MLA

كساب، إنصاف إبراهيم، و عزمي محمد شفيق الصالحي. "طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي: دراسة سردية" رسالة ماجستير. جامعة جرش، جرش، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/790241>

الفصل الثاني:
الاستهلاكات السردية
في طوق الحمامة

الاستهلاكات السردية في طوق الحمامة: مفهوم السرد:

السرد: هو الكيفية أو الطريقة التي تروى بها القصة أو الرواية، عن طريق الراوي الذي يروي القصة للمروي له، وما تخضع له هذه القصة من مؤثرات بعضها متعلق بالقصة وبعضها الآخر متعلق بالراوي والمروي له.

فتعيين الطريقة التي تروى بها القصة يسمى سرداً، فالقصة الواحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة لذلك يعتمد على السرد في تمييز أنماط الحكى، فالقصة لا تتحدد فقط بمضمونها، ولكن أيضاً بالطريقة والشكل التي يقدم بها ذلك المضمون^(١).

من الاستهلاكات السردية التي تلاحظ أثناء النظر في نصوص الطوق اتكاء ابن حزم على عبارات (حدثني، وأخبرني)، و (حدث وأخبر) التي تظهر في بداية سرده لروايات الطوق وحكاياته التي استقاها من التقاليد السردية لرواة الحديث النبوي، ورواة اللغة الذين سلكوا مسلكهم في تدوين الأخبار وإثبات الروايات، والتشدد في تقبل النصوص، فعبارات (حدثنا وأخبرنا، وحدثني وأخبرني)

(١) انظر حميد، لحميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت الحمراء، ط٣، ٢٠٠٠، ص ٤٥-٤٦.

كلها تدل على تاريخ من الواقع، لكنها انتقلت دلالاتها من قبيل تمثيل الواقع في ثوب الخيال وترسم صورة فنية إبداعية لا واقعية^(١).

هذا القول يذكر بكتاب (الذي ترجمه ابن المقفع والذي تظهر فيه عبارة (بلغني)، وهي أداة سردية تتصف بالإيحائية والتكثيف. فعبارة حدثني أو بلغني تحيل على شكل سردي مفتوح غير محدد يقبل الزيادة والنقصان، مما يعطي للقاص مجالاً ليبدع في سرده.

ثم إن هذه الأفعال تحمل معنى الإنباء والإخبار وتوحي بان هذه الروايات كانت في معظمها تروى مشافهة، وبطريقة متواترة أي أنها مدونات ويظهر ذلك من خلال السند، وهو نسبة الخبر إلى صاحبه، عبر سلسلة الرواة، على نحو ما نجده في قول ابن حزم في باب الطاعة

"حدثني أبو دلف الوراق عن مسلمة بن احمد الفيلسوف المعروف بالمجريطي، أنه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير أبي عمر احمد بن محمد بن حدير رحمه الله، في هذا المسجد كان مريض مقدم بن الأصفر أيام حادثة عشقه بعجيب فتى الوزير أبي عمر، كان يقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب"^(٢)

(١) انظر مرتاض، عبد الملك ، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٦٣-١٧٠.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألف، تحقيق إحسان عباس، ص ١٥٥-١٥٦.

هنا يظهر الإسناد بصيغة المبني للمعلوم، الذي هو أكثر إقناعاً بمصادقية ما يروى، من خلال ذكر سلسلة الرواة، اللاحق فالسابق فالأسبق في رواية الخبر، إضافة إلى إعطاء التفاصيل الدقيقة عن المسجد ومكانه من خلال عنصر الوصف.

ومن الأمثلة الأخرى التي يظهر فيها السند خبر نقله ابن حزم، في باب من أحب من نظرة واحدة قال: "حدثني أبو بكر محمد بن أحمد ابن اسحق، عن ثقة أخبره، وأظنه ابن الحذاء، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي، كان مجتازاً عن باب العطارين فرأى جارية وأخذت بجماع قلبه.^(١)

فالإسناد أصبح تقليداً وعادةً لصيقةً لاستهلاطات ابن حزم السردية، كما هو الحال في الموروث الحكائي السردى.

وبهذا الإسناد يبعد ابن حزم نفسه عن المساءلة، أو الشك، ويقدم الخبر كما أخبره به الرواة، وعند ذكر أسماء من تخصصهم الرواية فهو بذلك ينفي أن يكون هذا الخبر يخصه أو يتعلق به.

وتحديداً عند حديثه عن نوع من أنواع العشق شاع في الأندلس، وبالرغم من رفض المجتمع والدين والعادات والقيم لهذا النوع من العشق، الذي نعت

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢٠.

بالشنيع، فإن ابن حزم يستبشع ويستنكر ذلك الفعل فيقول: "أما فعل قوم لوط فشنيع شنيع"^(١).

فإن ابن حزم سلّط الضوء على بعض الآفات التي أصيب بها المجتمع الأندلسي، وعبر عن موقفه إزاءها، وأفرد لها باباً تحدث فيه عن قبح المعصية، فكتاب الطوق، في هذا الموقف، يعتبر نوعاً من الأدب المكشوف، إذ عبّر عن العلاقات بين الرجال والنساء، وعن العلاقات الأخرى حتى المرفوض منها، لكنه تناولها بأسلوب اقتصر على الاستشهاد والوصف الجامد، بعيداً عن الوصف الحسي.

ويتضح ذلك من خلال قصة رجل جليل عشق جارية ممنوعاً عنها حتى خرج يوماً في إحدى ضياعه مع بعض أهله وبينهم هذه الجارية، فأمرت السماء ولم يكن معهم أغطية، فجاء عمه ببعض الأغطية وأمر الجارية أن تحتفي معه تحت الغطاء! "فطنّ ما شئت من التمكن على أعين الملاء وهم لا يشعرون"^(٢).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٩٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

بهذا الحدث الذي أورده ابن حزم قدم أدبا مكشوفاً، كما يرى فاروق سعد^(١) في تحقيقه لطوق الحمامة، ويرى فاروق سعد أن هذا الأدب المكشوف قدم عن طريق الوصف الجامد بعيداً عن الوصف الحسي الذي يثير المشاعر ويعين على الباطل، فقدم ابن حزم الخبر بصورة تسترعي الخيال وبأسلوب مشوق لا يتنافى مع أخلاق الفقيه.

إن عبارتي (حدثني، وأخبرني) دالتان على الأنا، فهما تنبئان للسارد فرصة الحديث عن الذات ليعبر عن نفسه وعن مكنوناتها، فابن حزم عبر عما بداخله في أبواب الطوق، ففي باب الضنى مثلاً، سرد خبراً عن مروان بن يحيى، فقال: "حدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن حدير: أن سبب اختلاط مروان ابن يحيى بن أحمد بن حدير وذهاب عقله: اعتلاله بجارية لأخيه، فمنعها وباعها لغيره"^(٢).

فقد عبّر ابن حزم بسرده لهذا الخبر، ما يعانيه العاشق من آلام البعد والبين، ومن تدهور حالته النفسية والجسدية، فاستخدم ابن حزم لعبارتي (حدثني، وأخبرني) يجعله ينطلق ويعبر عما في داخل نفسه من لوعة وحزن وأسى، تحت ظل حدثني.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٩٦، ص ٢٦.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٢-٢٤٣.

ونخلص من ذلك إلى: "أن الاستهلال السردى إطار لا غنى عنه^(١)، على حد قول عبد الله إبراهيم في بحثه البنية السردية للموروث الحكائي العربى، فهو يرى أنه ينظم عملية الرواية والتلقى معاً.

تعددية الضمائر: أولاً: ضمير الغائب

ومن خلال دراسة الطوق، من منظور سردي، يمكن للباحث أن يلحظ وجود شكل سردي آخر يتمثل في كثرة استعمال الضمائر في السرد وتعددتها، فقد ظهر في أثناء الدراسة أن ضمير الغائب (هو، هي) وضمير المتكلم (أنا، نحن، نا) وضمير المخاطب (أنت، أنتِ) هي الضمائر المستعملة في السرد، إلا أن ضمير الغائب هو الأكثر استعمالاً بين الضمائر ومن ذلك ما أورده ابن حزم في باب الوفاء في قوله: "ولعهدي برجل من صفوة إخواني قد علق بجارية فتأكد الود بينهما، ثم غدرت بعهدة ونقضت ودّه، وشاع خبرهما، فوجد لذلك وجداً شديداً^(٢).

ويلاحظ من خلال النص أن ضمير الغائب في الفعل (عَلِقَ) يعود على الغائب هو، وهما في بينهما تعود على الغائب، والفاعل في غدرت ضمير الغائب هي، ومثلهما

(١) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربى، ١٩٩٢، ط٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٠٧.

فاعل (نقضته)، وفاعل شاع، وهما في خبرهما، كل هذه الضمائر تعود على غائب، وكل ما في الخبر مسند إلى ضمير الغائب، فهو الأكثر شيوعاً في الاستعمال بين الضمائر، لأنه وسيلة جيدة لأن يتوارى خلفها السارد ويعبر عما يشاء من أفكار وأيديولوجيات وآراء بقناع الغائب.

كما أن استخدام ضمير الغائب في السرد يفصل زمن الحكاية عن زمن السارد فهو خدعة سردية، وتقنية روائية تخدم الراوي، فاستفاد منها ابن حزم ليعبر عن زمنه، وعن حاله، بأسلوب الغائب ويتضح ذلك من خلاله خبر أورده في باب البين قال: "وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه، وانصرف كئيباً متغيّر اللون كاسف البال"^(١) نلاحظ في هذا الخبر تكتيفاً لضمير الغائب من خلال الأفعال المجهولة الفاعل، أي فاعلها ضمير الغائب هو فنلاحظ أن كلمة (ليودع) فاعلها ضمير الغائب هو و (محبوبه) هو، (فوجده) هو، (فات) هو، (فوقف) هو، (تردد) هو، (كان) هو، (انصرف) هو، (فتغير اللون) هو، وكاسف اللون أوصاف تعود على الغائب هو.

الخبر كله غياب في غياب، فغياب المحبوب ورحيله تسبب في غياب راحة المحبوب وتغير حاله ولونه، فكثرة اللجوء إلى ضمير الغائب وتكتيفه في النص يعد معادلاً موضوعياً لنفسية ابن حزم المغيبة عن الواقع التي تعيش حالة نفسية سيئة نتيجة غياب

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٢.

المحبيب، فجاءت عبارات الغياب انعكاساً لما يعانيه من غياب المحبوب وغرته عنه فالزمن هو زمن ابن حزم يسرده بضمير الغائب. وبذلك يوحى للقارئ بتصديق ما يجري من أحداث عبر نسيج لغوي يدخل فيه الواقع بالخيال.

كما يلاحظ الباحث أن ابن حزم استخدم ضمير الغائب بوصفه أداة سردية في كتابه، ويتضح ذلك في باب الوصل في قوله: "حدثتني امرأة أثقُ بها أنها شاهدت فتىً وجارية كان يجد كل منهما بصاحبه فضل وجد، وقد اجتمعا في مكان على طرب، وفي يد الفتى سكين يقطع بها الفاكهة، فجرها جراً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمه، فصرّفت يدها وخرقتها، أخرجت منها فضلة وشدت إبهامه^(١).

نجد في هذا الخبر أن ضمير الغائب (هو، هي) يهيمنان على السرد فالمرأة هي التي شاهدت ما حدث وروته لابن حزم، فاستخدام ابن حزم للضمير الغائب يبعد الظن عن أن يكون هذا الموقف قد حصل مع ابن حزم نفسه.

إن ورود ضمير الغائب متكرراً في سرد ابن حزم يشكل مرآة صادقة لغياب ذهن العاشقين، كما يظهر في الحكاية انشغال كل من المتحابين بالآخر، لدرجة أن العاشق

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٧.

ذهل فغفل عن السكين وجرح إبهامه، أما هي فلم تأبه بغلاتها المقصبة الثمينة، فخرقتها وأخرجت منها ما يلف بها إبهام حبيبها.

ثم وفي استخدام ضمير الغائب، في هذه القصة "تغيب لعقبة العادات والتقاليد"^(١) كما ترى مي يوسف في كتابها جماليات السرديات التراثية، فضمير الغائب يعطي السارد فسحةً واسعةً ليحكى ويحك ما يشاء من الأحداث، فهو وسيلة للتحدث بحرية أكثر وبشكل غير مباشر عن الحالة النفسية وعن الصراع الداخلي.

فإنعام النظر في طوق الحمامة وأخبارها يُظهر أن ضمير الغائب خيمَ على أسلوب ابن حزم في السرد وأبعد نفسه عن اثم الكذب فهو لم يعد غير سارد، يسرد ما سمعه أو علمه من حكايات وأخبار عن غيره^(٢).

إن ابن حزم باستعماله لضمير الغائب، فصل نفسه عن بعض ما ورد في الطوق من روايات قد تكون حصلت معه هو، ولكنها جاءت بصيغة الغائب، ومن ثم فإن المتلقي يعتقد بأن ما يحكيه ابن حزم (السارد) قد حصل بالفعل، وأنه مجرد وسيط بين المتلقي والقصة المحكية، ويلاحظ أيضاً أن استعمال ضمير الغائب في الطوق جاء غالباً مرتبطاً بالفعل الماضي، ويلاحظ ذلك في باب المراسلة، حيث قال ابن حزم: "ولقد رأيت كتاباً

(١) يوسف، مي أحمد ، جماليات السرديات التراثية، دراسات تطبيقية في السرد العربي القديم، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١١، ص ٥٣.

(٢) مرتاض، عبد الملك ، في نظرية الرواية، ص ١٧٨.

لمحب إلى محبوبته، وقد قطع في يده بسكين له، فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع^(١).

هنا جاء استخدام ضمير الغائب (هو) مرتبطاً بالفعل الماضي، فقال (قطع) وهو فعل ماضٍ فاعله ضمير غائب تقديره هو، و(استمد) أيضاً فعل ماضٍ فاعله ضمير الغائب (هو)، وكذلك (كتب) فاعله (هو).

فقد أتى ابن حزم بصيغة الماضي مرتبطة بضمير الغائب بغية التأثير في السامع أو القارئ ويوقر في ذهنه جدية ما يسرد حتى ولو كان ما يسرده مادة حكاية^(٢).

ثانياً: ضمير المتكلم:

نلاحظ أيضاً ظهور ضمير المتكلم في الطوق، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية السردية بعد ضمير الغائب، ويتضح أن ابن حزم لا يتردد في استعمال ضمير المتكلم، في حديثه عن نفسه، على نحو ما يظهر في قوله، في باب البين: "وعني أخبرك أنني أحد من دُهي بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أنني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت مما خلا اسمها نعم"^(٣).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٤٠.

(٢) يوسف، مي أحمد، جماليات السرديات التراثية، ص ٥٢.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٤.

ومن ذلك أيضاً قوله في باب السلو: "وعني أخبرك أنني جبلتُ على طبعين لا يهنأني معهما عيشُ أبدأ، وإنني لأبرم بحياتي باجتماعهما وأود التغيّب من نفسي أحياناً"^(١).

ويظهر ضمير المتكلم في قوله: "كنت أشد الناس كلفاً" فالتاء هنا تاء المتكلم، وهو ابن حزم، فقد عزا السرد إلى نفسه وحاول إدايته في زمنه.

وكذلك في قوله: "جبلتُ، يهنأني، وإنني لأبرم، وأود، كلها تشتمل على ضمير المتكلم الذي وظّفه ابن حزم في حكاياته، لتصبح هذه الحكايات مندمجة مع روحه معبرة عنه.

ولا شك في أن ضمير المتكلم يقرب المتلقي من ابن حزم (السارد) ويشدّ انتباهه ويُلاحظ ذلك في باب الهجر في قوله:

"وقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة، وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً"^(٢). من ذلك قوله:

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٩٤.

تذكرت وُدّاً للحبيب كأنه

لخولة أطلال ببرقة تهمد

وعهدي بعهدٍ كان لي منه ثابتٌ

يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقفت به لا موقناً برجوعه

ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغدِ

إلى أن أطل الناس عذلي وأكثروا

يقولون لا تهلك أسيّ وتجلّد^(١)

نلاحظ استعمال ابن حزم لضمير المتكلم في حديثه عن ذاته وتجربته التي مرَّ بها من هجر المحبوب وبعده عنه، ويظهر ذلك في قوله: (عرض لي) التي ظهر فيها ضمير المتكلم، وكذلك (كنت آلف)، و (قلت). كما يظهر ضمير المتكلم في الأبيات الشعرية التي ارتجلها بديهية في قوله (تذكرت)، و (عهدي) المضافة إلى ضمير المتكلم (الياء) وكذلك (وقفت) التي يظهر فيها ضمير المتكلم.

فضمير المتكلم جعل ابن حزم هو المتكلم وهو صاحب الشخصية التي تنهض عليها الحكاية، وهذا ما يجعل الطوق يُعد لدى بعض الدارسين من باب السيرة الذاتية، على نحو ما يرى عبد الملك مرتاض في كتابه (في نظرية الرواية) أنها "شكل سردي ذاتي ذو صلة وثقى بالواقع التاريخي"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٢) مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، ص ١٨٧.

فلا بد من ظهور ضمير المتكلم الذي يتولد عند الحديث عن أحداث حياة صاحب السيرة.

ومن حديث ابن حزم عن سيرته الذاتية ما أورده في باب السلوك حيث قال: "فلعهدي بمصطنع كان في دارنا.... تجمعت فيه النساء ونساء فتياننا، ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله.....، فإني لأذكر أنني كنت أقصد نحو الباب التي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره"^(١).

يظهر من هذا الخبر أن كتاب طوق الحمامة ترجم جانباً كبيراً من حياة ابن حزم وقدم صورة جميلة لأدب الاعتراف وعبر عن نفسية ابن حزم وشخصيته من خلال ضمير المتكلم"^(٢).

ونلاحظ أمراً آخر جديراً بالاهتمام هو أن استعمال ضمير المتكلم يأتي منسجماً مع الحديث عن الذات وهمومها ومنسجماً مع الحديث عن السيرة الذاتية التي عرفها عبد الله إبراهيم في كتابه (السردية العربية الحديثة) بأنها "الكشف

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، مطبعة دار الحياة، ١٩٩٦، ص ٢٠.

الذاتي لجانب من جوانب الحياة الشخصية بأسلوب مباشر في التعبير عن الذات تجاربها الروحية، والفكرية"^(١).

فلقد بدت على أسلوب ابن حزم، من خلال سرد أخباره وحكاياته ملامح من سيرته الذاتية، ففي طوق الحمامة عرض لبعض مذكراته ويوميته التي تتيح لنا المجال للتعرف على ملامح شخصيته وحياته الخاصة، ومن جانب هذه السيرة، يقول: وإني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا، وكانت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في الحسن...."^(٢) أطل ابن حزم في وصفها ومدحها لشدة حبه لها.

وفي هذا الأسلوب شيء غير قليل من تقنية الاسترجاع، إن هذه المذكرات تعرف القراء على أسرار ابن حزم الشخصية وماضيه، وتربطنا بتقنية التذكير، "التي تعود من خلالها الشخصية إلى الوراء لتذكر نقاط معينة تذكره بأحداث ومواقف حصلت معه في الماضي"^(٣).

هذه العودة، كما فعل ابن حزم بعودته إلى حبه وصباه، جمدت الأحداث لكنها أمدتها بالحيوية وأثارت فضول المتلقي لمعرفة المزيد.

(١) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة، ص ١٤٣.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٩.

(٣) المرازيق، جهاد بناء الخطاب الروائي، أحمد الزعبي، ص ١٥٥.

ومن الأمثلة التي يبنى فيها الخطاب السردى على الاسترجاع في طوق الحمامة، خبر رواه ابن حزم عن نفسه، تحدث فيه عن مصابه ومبتلاه، من خلال سرده الاستذكاري، عندما فقد من أحب، وعاد بحديثه إلى الوراء واسترجع ماضيه، فقال "كنت أشدَّ الناسَ كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتمني، سني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن..... فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجد من ثيابي"^(١).

فهنا استخدم ابن حزم تقنية الاسترجاع أو السرد الاستذكاري، فبعد أن فجع بوفاة من يحب، عاد بذاكرته إلى الوراء (الماضي) واستذكر أحداثاً سابقة لوفاة محبوبته، فقدم هذا الاسترجاع إضاءة لماضي الشخصيات، وعرض لجوانب من حياتها، ما خلق لدى القارئ حافزاً لمتابعة القراءة والتلقي، إذ لا يكتمل النص إلا في نهايته.

فابن حزم، من خلال الاستنكار والاسترجاع، اختزل زمن الحكاية فجاء ملتحمًا بالنص، مترابطاً مع شعور ابن حزم وحالته النفسية، فتقنية الاسترجاع أضافت لونا تعبيرياً جديداً في طوق الحمامة وأعطته مذاقاً عاطفياً جعل المتلقي

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

يتعاطف أكثر مع ابن حزم ومشاعره^(١) فقد استحضر بهذه التقنية ذكرياته وهمومه وهموم الآخرين.

ثالثاً: ضمير المخاطب:

أما فيما يتعلق بضمير المخاطب فهو أقل الضمائر وروداً في طوق الحمامة، ومما يظهر فيه استعمال ضمير المخاطب، وما جاء نقله ابن حزم عن بعض الإخوان، في باب الوصل حيث قال: "حدثني بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبه له هوى، وكان في المنزلين موضع مطّلع له من إحداهما إلى الآخر..... فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها، فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فأجابته: أنه ربما أحسّ من أمرنا شيء، فوقف لك غيري فسلم عليك، فرددت عليه فصحّ الظن فهذه علامة بيني وبينك"^(٢).

فيظهر استعمال ضمير المخاطب في جملة (فوقف لك) والمخاطب هنا أنت وأيضاً (سلم عليك) والمخاطب أنت، وكذلك جملة (رددت) محدثاً المخاطب وأيضاً (بينني وبينك) فالكاف ضمير المخاطب، في هذه الحادثة يُلاحظ تكثيف في إيراد الضمائر، فقد اجتمع ضمير الغائب في جملة (فتسلم عليه ويدها ملفوفة) وضمير المتكلم في (بينني).

المخاطب (بينك) كل هذه الضمائر اجتمعت في موقف واحد صورته جمل قصار

متتابعة عبر الخطاب السردى فقدمت وظيفة سردية في حكايات طوق الحمامة.

(١) قاسم، سيزا طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

كما أورد ابن حزم خبراً آخر ورد فيه استعمال ضمير المخاطب في باب فضل التعفف؛ قال: "حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خاليين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا. فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً"^(١).

في هذا الخبر يلاحظ وجود ضمير المخاطب في كلمة (هلمي) وهو ياء المخاطبة، فهذا الضمير قدم وظيفة سردية عبر الحوار الذي دار بين الفتى والمرأة.

وهناك أيضاً خبر آخر أورده ابن حزم في باب التعريض في القول، يظهر فيه استعمال ضمير المخاطب في قوله: "وأنا أعرف فتناً وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل، فقالت: والله لأشكونك في الملاء علانية ولأفضحك فضيحة مستورة"^(٢).

ورد ضمير المخاطب في قول الجارية (والله لأشكونك) في كاف الخطاب وكذلك في (لأفضحك) أيضاً في كاف الخطاب الذي يعود على الفتى.

نجد في هذين الخبرين صورة جميلة للمرأة الأندلسية العفيفة الطاهرة رسمها لها ابن حزم في طوق الحمامة التي لا ترضى إلا بما يرضي الله.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٩٧.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٥.

فالمتمأل في طوق الحمامة والدارس له يلاحظ إن استخدام ضمير المخاطب جاء قليلاً في الطوق متناسباً مع سرد قصصه وحكاياته.

فإنعام النظر في حكايات طوق الحمامة وأخبارها يظهر أن ضمير الغائب قد تسيد أسلوب ابن حزم في السرد، الذي يقودنا من خلاله إلى أسلوب آخر، وهو:

تنكير الشخصية:

وهذا الأسلوب يمكن السارد من تطوير الأحداث، ويعطيه حرية في القص، ليضيف على الشخصية بعداً قصصياً يحفز على نسيج المزيد من الأحداث والأفعال حول هذه الشخصية ولاحظنا ذلك في الخبرين السابقين الذين وردا عن امرأة علقت بفتى مثلها في الحسن والخبر الآخر عن فتى وجارية كانا يتحابان فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل.

نلاحظ في الخبرين أنه لم يرد ذكر أسماء شخصيات القصة ولا على سبيل التلميح بشيء عنهما، وذلك بقصد عدم التشهير بهما بين الناس وبهدف كتمان سرهما وهناك خبر آخر يظهر فيه تنكير الشخصية، أورده ابن حزم في باب (قبح المعصية) قال: وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوا له، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده، فمضى داعيه إلى منزله فانتظره حتى طال عليه التريص فلم يأت^(١).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٦.

يلاحظ في هذا الخبر أن ابن حزم قد غيب شخصياته فجعل الحكاية أكثر إقناعاً
لخيال السامع وأبعد نفسه عن المساس بأعراض الناس أو الإساءة إليهم.

وفي موضع آخر من حكايات الطوق، وتحديدًا في باب (من لا يحب الا مع
المطاوله) نجد ابن حزم يقول: "وإني لأعرف فتى من أهل الجدة والحسب والأدب كان
يبتاع جاريه وهي سالمة الصدر من حبه، وأكثر من ذلك كارهةً له لقلّة حلاوة شمائل
كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه لا سيما مع النساء"^(١).

يلحظ هنا أن ابن حزم يوسع من نطاق حرّيته في التعبير، فيكثر من وصف ما
كان يجري بين المتحابين، دون خوفٍ أو مساءلة، فهو بهذا الأسلوب ومن خلال تنكير
الشخصية استطاع أن يعبر عما في نفسه من مشاعر، ولكن بأسلوب غير مباشر فضلاً
عن حديثه عن مشاعر الآخرين، وقد لجأ ابن حزم أيضاً إلى تنكير الشخصيات في قوله:
"ولقد أخبرني ثقة من إخواني من أهل الفقه أنه أحب جارية نبيلة أدبية ذات جمال، قال:
فعرضتُ لها فنفرت، ثم عرضتُ فأبت، فل يزل الأمر يطول وحبها يزيد، وهي لا تطيع
البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها، إني متى نلت منها مرادي أتوب إلى الله، حتى أذعنت
بعد شماسٍ ونفار، فقلت له: أبا فلان، وفيت بعهدك؟ فقال أي: والله فضحكت"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٠.

فهذه الحكاية، وبهذه التقنية من التتكير وطى بعض الأوصاف والتعليقات، أتاحت للقارئ والسامع فسحاً واسعةً من الخيال، فابن حزم لم يذكر أسماء الشخصيات وحافظ على العادات والتقاليد، ولم يشهر بالمتحابين، ولم يفضح أمرهم حين أشار من بعيد إلى ما جرى.

الحوار، يقع في مقدمة تقنيات السرد:

والحوار: "حديث يجري بين شخصين أو أكثر، كأن يكون حواراً خارجياً ويسمى الديالوج، أو أن يكون حواراً مع النفس وهو حوار داخلي^(١). ويسمى المونولوج^(٢).

لقد تضمن (طوق الحمامة) قصصاً وأمثلة كثيرة دار فيها الحوار، بكل أنواعه بين شخوص الحكايات، ومن ذلك ما جاء من قصةٍ أوردها ابن حزم في باب (المساعد من الإخوان) قال: "وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله ناسكة مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتابٍ لفتى إلى جارية كان يكلف بها، وكانت في غير ملكها، فعرفته الأمر، فرام الإنكار، فلم يتهياً له ذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عصم؟ فلا تبالي بهذا فوالله لا أطلعت على سركما أحداً، ولو أمكنني أن ابتاعها لك لفعلت^(٣).

(١) المرازيق، جهاد، بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، دار الكرمل للنشر، ٢٠٠٥، ط ١، ص ١٣٨.

(٢) المونولوج: حوار النفس الذي يعتمد على الإيحاء، والرمز والتلميح.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٥.

في هذه القصة يظهر الحوار المباشر وهو أكثر أنواع الحوار تداولاً في الأدب القصصي إذ قام ابن حزم بنقل كلام المتحاورين، متقيداً بحرفيته وصيغته، هذا النوع من الحوار نتج عن التغيير الذي طرأ على دور الراوي في القص، حيث كان يمارس مهمة سردية مهيمنة تعلم عن الحدث قبل وقوعه، ويقص علينا ما يراه من زاويته.

الحوار الداخلي أو المونولوج:

ومن القصص التي تضمنت حواراً أيضاً ما روي عن رجلٍ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إني استهتر بثلاث: الخمر والزنا والكذب. فمرني أيها أترك، فقال: اترك الكذب، فذهب عنه. ثم أراد الزنا ففكر فقال: آتي رسول الله فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت: نعم، حدّني، وإن قلت: لا، نقضت العهد، فتركه ثم كذلك في الخمر^(١).

لقد ظهر الحوار في هذه القصة وقد صيغ بزمن الفعل الماضي، واستخدم فيه ضمير الغائب، ونكّر ابن حزم الشخصية، ولم يذكر اسمها، وهو الذي روى حديث الشخصية عن طريق الحوار، فادى الحوار بذلك وظيفة سردية دفعت بالأحداث إلى الأمام وبثت الحيوية والتلقائية في المواقف، ويظهر ذلك عندما أراد الرجل الزنا فتذكر وعده ونصيحة الرسول إليه فعمل بها.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٥.

"الحوار كشف عن طوايا المتحاورين"^(١) وما يجول في نفوسهم ويعبر عن لغتهم والمستوى العقلي والثقافي والاجتماعي لهم.

والدارسة تتفق مع الدكتورة مي احمد يوسف فيما جاء في كتابها (جماليات السرديات التراثية) فيما يتعلق بالحوار وهو أن السارد هو المسيطر على الزمن والحيز معاً المتمكن من مكونات السرد فالحكاية هنا جاءت تعبر عن نوع آخر من أنواع الحوار وهو الحوار الداخلي أو المونولوج ويظهر ذلك في عبارة "ثم أراد الزنا ففكر فقال: آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت: نعم، حدّني، وإن قلت: لا، نقضت العهد"^(٢).

يلاحظ أن ابن حزم، في نقله لهذه القصة، كان على وعي بمفهوم الحوار الداخلي - أوالمونولوج الذي هو سبل من المشاعر والأفكار، تجري في ذهن الشخصية وأعماقها دون تنظيم، أو تسلسل واعٍ ولا تخضع لمنطق الزمان أو المكان تفرضها عليه اللحظة الشعورية التي يعبر عنها من خلال هذا الحوار الداخلي.

(١) يوسف، مي أحمد جمليات السرديات التراثية، دراسات تطبيقية في السرد العربي، دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٥٨.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٥.

فقد وفق ابن حزم في استخدام الحوار الداخلي في نقل مشاعر الشخصية وأفكارها بلحظاتها الشعورية المتدفقة وطوع الحوار للتعبير عما في داخله فالمونولوج حديث الذات للذات.

هذا الأسلوب أتاح لأبن حزم كما يرى جهاد المرازيق في كتابه بناء الخطاب الروائي فرصة الربط بين الماضي والحاضر وينتقل من مكان إلى آخر ومن فكرة الوصل بين الجارية والفتى إلى فكرة الغدر بهما^(١).

لغة الحوار في طوق الحمامة:

إن الدارس للطوق يلاحظ استثمار ابن حزم لتقنية الحوار في ثنايا متن الحكايات. ويمثل حوار اللغة المعترضة التي تقع وسطاً بين المناجاة (المونولوج الداخلي) واللغة السردية على حد قول عبد الملك مرتضى في كتابه في نظرية الكتابة^(٢)، إذ يجري الحوار بين شخصين أو أكثر داخل العمل الأدبي، ويظهر الحوار في حكايات طوق الحمامة ومنه ما ورد في باب (من أحب من نظرة واحدة)، عن الشاعر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي، عندما اجتاز باب العطارين وصادف هناك جارية وجعل يتبعها فقالت له: "مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليته بها. فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فقال: إني

(١) انظر المرازيق، جهاد، بناء الخطاب الروائي، ص ١٤٣.

(٢) مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، ص ١٣٤.

اقتنع بالنظر، فقالت له: ذلك مباحاً لك، فقال لها: أحرّة أم مملوكة؟ قالت:
مملوكة.... الخ^(١).

إن الحوار في هذه الحادثة قدم بعداً جديداً للمتلقي، فقد عمّق معرفته
بالشخصيات وبأفكارها، فالشخصيات هي التي عبرت عن نفسها والحوار ترك
الباب مفتوحاً للمتلقي يستوحي ما يشاء من الرؤى والأفكار فقد استغنى ابن حزم
بالحوار عن السرد والوصف لتقديم حكايته.

الاسترجاع أو السرد الاستذكاري:

ومن التقنيات الأخرى التي لجأ إليها ابن حزم في سرده، الاسترجاع أو السرد
الاستذكاري.

"وهو كل عودة للماضي يحيلنا من خلالها الراوي إلى نقطة وأحداث سابقة للنقطة
التي وصلتها القصة أو الرواية"^(٢).

ومن الأمثلة التي وظف فيها الاسترجاع في الطوق، خبر رواه ابن حزم عن نفسه،
تحدث فيه عن مصابه ومبتلاه، عندما فقد من أحب، وعاد بحديثه إلى الوراء واسترجع
ماضيه، فقال في باب الوصل "لقد ضمنني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجلي
خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادي، وغير شافٍ وجدي ولا

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢١.

(٢) المرازيق، جهاد، بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، ص ١٥٥.

قاضي أقل لبانة من لباناتي، ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت ولوعاً، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي"^(١).

في هذه الحادثة بدأ ابن حزم حديثه باسترجاع واستنكار ماضية، فعاد بذاكرته إلى الوراء (الماضي) واستذكر أحداث سابقة، فقدم هذا الاسترجاع إضاءة لماضي الشخصيات وعرض لجوانب من حياتها وعبر ابن حزم فيها عن أفكاره ومبادئه فهو يرى أنه ما روي قط من ماء الوصل ولا زاده إلا ظمأً، هذه الذكريات خلقت لدى القارئ حافزاً لمتابعة القراءة والتلقي إذ لا يكتمل النص إلا في نهايته.

فابن حزم من خلال الاستنكار والاسترجاع اختزل زمن الحكاية وجاء ملتحمًا بالنص، مترابطاً مع شعور ابن حزم وحالاته النفسية، فتقنية الاسترجاع أضافت لونا تعبيرياً جديداً في الطوق وأعطته مذاقاً عاطفياً^(٢)، جعل المتلقي يتعاطف أكثر مع ابن حزم ومشاعره التي استرجعها عند حديثه عن همومه وهموم الآخرين.

كما يتجلى استخدام ابن حزم لتقنيته الاستنكار والاسترجاع عند حديثه عن طفولته ونشأته، لقد عاد ابن حزم بذاكرته إلى طفولته ونشأته التي كانت بين جوارى القصر، فابن حزم يرجع الفضل لهن في تربيته وتنشأته وتعليمه القرآن والشعر والخط.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق الدكتور طاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٨٢.

(٢) قاسم، سيزا، بناء الرواية، ص ٤٣.

فقد ربط ابن حزم من خلال الاستدكار ماضيه بحاضره، فماضي ابن حزم ما زال يجري في أعماقه وذهنه، لم ينفصل عن حاضره ومشاعره تتقلب بين ماضيه وحاضره. فهنا نلمح استخدام أسلوب المذكرات عند حديثه عن نشأته وكذلك شبابه، أي سيرته الذاتية.

فبهذا الأسلوب شيء غير قليل من تقنية الاسترجاع من خلال أسلوب المذكرات التي تعرف القراء على أسرار ابن حزم الشخصية والأحداث والمواقف التي مر بها والتي أمدت طوق الحماسة بالحيوية وأثارت فضول المتلقي وأغرته بالمتابعة. لقد لاحظت الباحثة أن هذه الأشكال السردية هي الأكثر بروزاً في الطوق من باقي الأشكال الأخرى فهناك أيضاً الحلم أو أحلام اليقظة التي ظهرت في باب (من أحب في النوم) في خبر أورده عن أبي السريّ انه قال: رأيت نومي جاريةً فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها^(١).

فهذه التقنية موجودة في الطوق لكنها لم تبرز كغيرها من التقنيات.

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحماسة في الألفة والألف، تحقيق احسان عباس، ص ١١٥

العلاقة بين الوصف والسرد في طوق الحمامة:

الوصف: يعني ذكر أحوال الشيء وهيئاته التي تتجلى فيه، "الوصف أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي وتقديمها للعين"^(١).

ويعد الوصف من العناصر الأساسية التي اعتمد عليها ابن حزم في سرده، وذلك باستخدامه وصفاً تعبيرياً، يتناول الإحساس الذي تثيره الأشياء في نفس المتلقي.

ويلاحظ أن ابن حزم لجأ إلى الإيحاء والتلميح لا الاستقصاء والتفصيل من خلال الصور السردية، ومثال ذلك نجده في قوله في باب البين: "رأى دارنا وقد أمحت رسومها وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران... فأبكى عيني وأوجع قلبي"^(٢).

إن وصف ابن حزم للمكان جاء ملتحماً بالسرد وعلى هيئته صور سردية وفي الوقت نفسه جاء وصفه معبراً عن وقع الأحداث وآثارها في نفسيته، فالوصف بهذه الطريقة يكون بالإيحاء والتلميح فلم يذكر ابن حزم ما كان بدورهم من أشياء وأثاث، وإنما ذكر ما لهذه الدور من أثر في نفسه.

(١) قاسم، سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لنجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤، ص ٧٩.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٧-٢٢٨.

فهذا المقطع الوصفي المعبر عن أشياء ساكنة، وهي الديار وما آلت إليه بعد الرحيل، يعد وصفاً تعبيرياً، عبّر عن وقع هذا الدمار والخراب والبين في نفس ابن حزم، فالوصف هنا نهض بمهمة وظيفية فنية، فتجاوز تمثيل الموجودات والأشياء والديار الخاوية إلى مستوى أعمق من الرمزية والدلالة^(١).

وفي حادثة أخرى، ذكرها ابن حزم يظهر فيها الوصف متداخلاً مع السرد، وذلك في وصفه لجارية نشأت معه في الصبا، فغاب عنها أعواماً كثيرة، وعندما رآها صدفةً في بيت امرأة من معارفه قال: "وجدتها وقد جرى على وجهها ماءُ الشباب ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملامة فتردت وتحيّرت، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحُسن فأشرققت وتوقدت"^(٢).

فهذا النص تسيطر عليه الصورة السردية، التي تداخل وصفها بسردها، فقد عرضت الأشياء متحركة من خلال وجود الأفعال كما ظهر تفوق ابن حزم في وصفه لجمال الجارية، باستخدامه الانزياحات، إذ جعل نضارة وجهها وجماله وشبابه كالنهر الذي يجري ويفيض لغزارته، وجعل ملاحظتها لشدها كالينبوع الذي تفجر لغزارته وكثرة مائه، وجعل صفاء وجهها كصفاء السماء التي تظهر فيها النجوم المتألئة.

(١) قاسم، سيزا، بناء الرواية، ص ٨٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٣.

فالوصف هنا ليس وصفاً جغرافياً أو مكانياً يُصوّر فيه النهر أو السماء أو الينابيع، وإنما هو وصف مجازي يكثف المعنى فيه إلى أعلى درجات التكثيف، وتُوظف البلاغة في وصفه أجمل توظيف.

جاء الوصف خادماً للسرد، فقدم وظيفة إيهامية^(١) كما ترى سيزا قاسم في كتابها بناء الرواية، إذ أدخل العالم الخارجي بتفاصيله (النهر، الينابيع والسماء) في عالم الحكاية التخيلي، فأشعر القارئ بأنه يعيش في عالم الواقع لا الخيال، وخلق انطباعاً بالحقيقة.

ومن أساليب الوصف التي استخدمها ابن حزم في طوق الحمامة أسلوب الوصف التصنيفي^(٢)، الذي يعتمد فيه إلى الاستقصاء وذكر التفاصيل، ويظهر ذلك من خلال وصفه للقصة التي كانت في دارهم المطلّة على بستان الدار، وذلك في باب (السلو)، عندما تحدث عن لقائه بمحبوبته (نعم)، في وليمة أو حفل كان في داره، وقد اجتمعت النساء والخادمت وتنقلن في أركان البيت وصولاً إلى القصة، التي سردها واصفاً: "تنقلن إلى قصة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحومها، مفتحة الأبواب"^(٣).

(١) قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨٢

الوصف التصنيفي: أسلوب انشائي يتناول ذكر الأشياء في أحوالها كما هي في العالم الخارجي وتقديرها بصورة تعكس المشهد بعيداً عن وصفه للحاسيس.

(٢) قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨١.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٥٠.

يلاحظ في هذه الحكاية استخدام ابن حزم للوصف الموضوعي، الذي يذكر من خلاله أوصاف الموجودات في القصة بكل حذافيرها، بعيداً عن وصفه لإحساسه أو مدى تأثير المكان فيه، ولكن مع تنامي الأحداث اتجه السرد وجهة أخرى، واتبع ابن حزم في وصفه أسلوباً آخر، فلجأ إلى الوصف التعبيري، الذي يعبر من خلاله عن إحساسه ومدى تأثيره بالأشياء من حوله ويتضح ذلك من خلال قوله: "واني لأذكر أنني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة"^(١).

إنَّ هذا الموقف يحمل صورة سردية^(٢) مفعمة بالحركة والتشويق والإثارة، فعبارة ابن حزم "كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها".

تكشف حالته النفسية، وما هو عليه من عظيم الشوق واللهفة للقرب من محبوبته، كما تجذب هذه العبارة انتباه المتلقي، وتشوقه لمعرفة ما سيحصل، وردود أفعال الشخصيات.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٥٠.

(٢) انظر قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨٣.

وكذلك الحال عندما قال: "فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك المكان وتقصد غيره." فالأفعال في النص توحى بالحركة والحيوية، وتطلق للمتلقي العنان ليتخيل ما يشاء من الصور، فالوصف بهذا الأسلوب خدم السرد ودفعه برمته إلى الأمام، وساهم في تنامي الأحداث.

وفضلاً عن ذلك، قدم الوصف مهمة وظيفية فنية جمالية تحمل معاني ودلالات أكبر من مجرد وصف المكان ووصف من هم فيه، بل تعدى ذلك لينهض بمهام تفسيرية، وصف وفسر فيها حالته النفسية، ومدى تأثير المكان ومن هم فيه عليه، فبالأمس كان المكان مصدر سعادة وأنس بقرب المحبوب، والآن (في زمن الحكي) أصبح مكان ذكرى تثير الحزن والأسى على فراق المحبوب.

إن الوصف أشبه بعملية استطراد واسعة يطلع بها الخطاب الأدبي ويتوسع على حساب الزمن الحقيقي للحكاية فيتوقف زمن القص على زمن الحكاية.

فالوصف تقنية زمنية فاعلة يعول عليها في إبطاء وتيرة السرد أو حتى تعطيله كلياً فورود الوصف في القص يكون على حساب التتابع الزمني في سرد الأحداث، فيعطل السرد ويعلق مجرى الحكاية لفترة قد تطول أو تقصر^(١).

ومن الملاحظ على أسلوب ابن حزم في الوصف أنه اعتمد في غالبية الطوق على الوصف التعبيري أكثر من الوصف التصنيفي، لأن الطوق يمثل ظاهرة نفسية واجتماعية تلمس وتحاكي الإحساس والمشاعر وهذا شأن ظاهرة الحب.

(١) انظر ماضي، شكري أبو الشعر، هند، الرواية في الأردن، منشورات جامعة آل البيت، ٢٠٠١، عمان، الأردن، ص ١٤٥.